المجلد: 18 العدد: 02/مارس2023
ص: 247 - 257
ISSN: 1112-7015
EISSN: 2602-5973

المفارقة السّاخرة وأبعادها الدّلالية في رواية "شبح الكاليدوني" لمحمد مفلاح - قراءة في المسكوت عنه-

IRONY AND ITS CONNOTATIVE DIMENSIONS IN THE NOVEL « SHABAH AL KALIDONI » OF MOHAMED MAFLAH - A READING IN THE TABOOS-

صارة زوبير *[1]
[1] جامعة يحي فارس بالمدية (الجزائر)، zoubair.sara@univ-medea.dz
مخبر اللغة وفن التّواصل

تاريخ الإرسال: 2022/10/01	تاريخ القبول:2023/02/09	تاريخ النشر: 2023/03/28

****

ملخص:

تسعى هذه الورقة البحثية إلى تقديم قراءة نقديّة في خطاب المسكوت عنه في رواية "شبح الكاليدوني" لمحمد مفلاح؛ قصد التّنقيب عن مكامن المفارقة فيها، وتتبّع أبعادها الدّلالية المتستّرة خلف حجاب التّشفير والتّرميز، وذلك عبر تقويض المشاهد السّردية السّاخرة وفك شفراتها الرّامزة للوصول إلى الدّلالات العميقة التي يرمي إليها الكاتب من جهة، وكذا الكشف عن جماليات الخطاب السّاخر ومهارته في نقد الواقع وفضح المجتمع الفاسد المبني في جوهره على المفارقات.

الكلمات المفتاحية: مفارقة; سخرية; دلالة; خطاب المسكوت عنه; شبح الكاليدوني.

ABSTRACT **:**
This paper aims at presenting a critical reading to the taboo discourse in the novel “Shabah al Kalidoni” of Mohamed Maflah in order to find out the position of the irony in it through tracing back its connotative dimensions that lurk behind the veil of coding. This is through adapting and deciphering the narrative ironic scenes to reach the deep connotations the author targets, and revealing the aesthetics of irony discourse and his skills in criticizing the status-quo and disclosing the corrupt society that takes the form of controversies.
Keywords: controversy; irony; connotation; taboo discourse; Shabah al Kalidoni.

1. مقدمة:

تمكّنت الرّواية من إثبات وجودها في السّاحة النقدية العربية والعالمية، إذ تراكمت حولها الأبحاث والدراسات محاولة معالجتها من مختلف الجوانب الإبداعية؛ فهي تطرح بطريقتها الفنية المميزة القضايا التي شغلت فكر الإنسان، كما أنها استطاعت أن تكون بمثابة سجلّ تاريخي لحياة البشر، تصور وقائعهم اليومية بدقائقها وتفاصيلها في قالب فني يعرض الواقع ويعطي تصورا جديدا له، ومن هنا تبرز أهمية الرواية كفن أدبي له مكانته عن باقي الأنواع الأدبية إن لم نقل يتصدرها.

* صارة زوبير

وبهذا غدت الرواية أرضا خصبة لإسقاط الواقع المعقد في تركيبه، ووسيلة لاحتواء أجزائه المفككة، يدغمها المبدع مع بعضها وفق رؤيته الخاصة، لتشكيل عالم فني تخييلي يعكس العالم الواقعي بأدق تفاصيله، معتمدا في ذلك أساليب بلاغية تمنح العمل الأدبي صفة التفرد والمثالية، أهمها المفارقة؛ لما لها من دور وتأثير في مجال الإبداع باعتبارها أسلوبا جماليا يصبغ الكثير من الأعمال والأجناس الأدبية المختلفة، ووسيلة مراوغة وخداع تلبي أغراضا سياسية واجتماعية وغيرها.

وقد عرفت الرواية العربية الحديثة والمعاصرة اتّجاها جديدا في الكتابة، فاتخذت من المفارقة مسلكا لها، ومن السّخرية سلاحا لكشف وفضح الواقع المزيّف سياسيا واجتماعيا واقتصاديا وثقافيا، فجاءت معظم النّصوص الأدبية رامزة ساخطة رافضة للأوضاع السّائدة، الأمر الذي دفع بعديد الأدباء والكتّاب إلى اعتناق الأسلوب السّاخر واعتماده بطريقة غير مباشرة في النّقد والتّغيير في مختلف جوانب الحياة، لذا كان لزاما على الرّواية الجزائرية أن تتكيّف مع الأوضاع وتخوض في المحظور دون الجهر به، باعتبارها الوسيلة البارزة في نقد الواقع وكشف تناقضاته بطريقة إبداعية ساخرة، وأداة تحمل تصورات وأفكار وإيديولوجيات يبتغي الكاتب تمريرها للقارئ في قالب لغوّي مميّز.

من هنا كان توجهنا للرواية الجزائرية لأنها جديرة بالاهتمام والدراسة، ومن بين الروايات التي وقع عليها اختيارنا رواية "شبح الكاليدوني" لمحمد مفلاح، باعتبارها حقلا لغويا توهج بالشعرية والجمالية وبُؤر المفارقة والسخرية خاصة على مستوى الشّخصية السّاردة وكذا الأحداث الاجتماعية والسياسية، التي تعكس قوّة المبدع في نقل صورة واقع مليء بالمتناقضات يتخبط في شباكه الإنسان المعاصر.

وكان علينا من خلال هذا التقديم طرح إشكالية رئيسة تكون بمثابة الهدف الذي ترنو إليه هذه الورقة الوصفية التحليلية، ما مدى تمّ توظيف المفارقة السّاخرة في خطاب المسكوت عنه في رواية "شبح الكاليدوني" لـ: محمد مفلاح؟

طرحت هذه الإشكالية بعض التصورات والرؤى الأولية لتكون فرضيات تساعد الباحث على الوصف والتحليل، وبناء إجابات واضحة حول الموضوع والإلمام بجوانبه المعتمة، ومن ضمن هذه الفرضيات:
-المفارقة السّاخرة تقنية حداثية حظيت باهتمام بالغ في الدراسات النقدية، لما لها من أبعاد فكرية وجمالية تعكس مهارة المبدع وقدرته الفنية في إبراز مواقفه ونظرته إزاء الواقع السّياسي والاجتماعي من خلال التّلاعب باللّغة، إذ نجدها حاضرة ومهيمنة في خطاب المسكوت عنه باعتبارها ظاهرة فنية صنعت لنفسها مكانة في المجال الأدبي عموما و لنص السردي على وجه الخصوص.

- المفارقة السّاخرة ظاهرة أدبية ووسيلة بلاغيّة لها أهدافها التي تتنوّع حسب عمق رؤية المبدع، فكلما كان واعيا بتعقيدات الحياة وإشكاليات العصر كانت مفارقاته أكثر عمقا.

وانطلاقا من أهمية الموضوع نسعى إلى فضح دلائلية السخرية وأبعادها في رواية "شبح الكاليدوني" لمحمد مفلاح، من خلال تقصي مكامن المفارقة وتتبع أثرها داخل غياهب المسكوت عنه -الذي هو عماد قراءتنا النقدية-

لا يسمح مجال البحث بالتوسع والإسهاب في الجانب النظري، لكننا سنحاول التعريف ببعض المصطلحات من قبيل "المفارقة" و"السخرية".

2. تحديد المصطلحات

1.2 المفارقة:

إن المفارقة من بين أهم المصطلحات النقدية التي حظيت بمكانة مهمة في المقاربات النقدية المعاصرة، إذ إن مفهومه تطور وتغيّر من عصر إلى آخر كونه شمل جوانب عديدة من الحياة قبل دخوله مجال الأدب، فقد تباينت تعريفاته وتعدّدت؛ الأمر الذي زاد من غموضه وعدم استقراره لغة ودلالة، ومن أهم دارسي المفارقة "دي سي ميويك" الذي عرفها بأنها "صيغة بلاغية تُعبر عن القصد باستخدام كلمات تحمل المعنى المضاد"[1]، كما ذهب في تعريفه إلى أبعد من ذلك ولم يحصر معنى المفارقة بدلالة واحدة، فهي "قول شيئ بطريقة تستثير لا تفسيرا واحدا، بل سلسلة لا تنتهي من التفسيرات المغايرة"[2] داخل بنية النّص اللّغوية.

وعليه فالمفارقة هي قول شيء بطريقة تستفزّ عددا لا متناهيا من التأويلات المختلفة، بمعنى أنها "كلام يبدو على غير مقصده الحقيقي، أو أنها كلام يستخلص منه المعنى الثاني الخفي من المعنى الأول السطحي. وهي لعبة لغويّة ماهرة وذكيّة بين طرفين اثنين أولها صانع المفارقة وثانيهما قارئها، على نحو يقدّم فيه الأول النّص بطريقة تستثير القارئ وتدعوه إلى رفضه بمعناه الحرفي"[3] محاولا التواطؤ مع النص والكشف عن الدّلالة العميقة التي يحملها الملفوظ لإيجاد دلالة أخرى.

كما أشارت سيزا قاسم في دراستها لها "بأنها استراتيجية قول نقدي ساخر"[4] تنهض على الجمع بين المتتناقضات للتفخيم من درامية الأحداث والتصعيد من مأساوية المشاهد.

إذن، المفارقة طفرة علائقية تؤديها اللغة وتعيش فيها المتضادات اللّغوية التي تفجّر الدّوال الكامنة في النص وفق نسق من العلاقات المتباينة.

ويجدر التنويه إلى أن هناك ألفاظا شائعة في تراثنا حملت معنى المفارقة واقتربت منها:كالسخرية والتهكم والهزء والازدراء والاحتقار...، لكن المفارقة تبقى أشملها وأعمها.

وتحضر تقنية المفارقة في الأدب بشكل بارز، حيث وظّفها الأدباء في العصر الحديث لأنها أكثر قدرة على إبراز التّناقضات التي عرفتها الحياة الرّاهنة حين ابتعدت عن البساطة ومالت إلى الكلفة والتّعقيد، فاستطاعوا بفضل وعيهم بالمفارقة حمل أفكار الجمهور ومشاعرهم ورؤاهم انطلاقا من الانحراف اللّغوي الذي يجعل اللغة مراوغة ومتعدّدة الدّلالات، ومنهم الرّوائي الجزائرّي "محمد مفلاح" الذي أبرز مقدرته وبراعته على تصوير الواقع بلغة الحياة اليائسة، وإبراز مختلف التناقضات والمفارقات إزاء قضايا معينة وأزمات مرتبطة بالحياة الاجتماعية والسياسية، وذلك بواسطة لغة إيحائية تنفتح على دلالات متعدّدة تمنح القرّاء آفاقا واسعة للتأويل.

وقد يكون السّبب الذي يدفع الأديب إلى اعتماد المفارقة في نصّه وعدم التّصريح بالدّلالة المباشرة، الظّروف التي تحتّم عليه استخدام مثل هذه الأساليب، وذلك "عندما يشتدّ الطّغيان والقهر السّياسي والاجتماعي في أمّة من الأمم في عصر من العصور، فيكبّل حرّيات الشعب، ويفرض

على أصحاب الكلمة من الشّعراء وكُتّاب ومفكّرين ستارا رهيبا من الصّمت بقوّة الحديد والنّار، أو بقوّة النّبذ الاجتماعي –إذا كانت القوى المسيطرة قوّة اجتماعية وليست سياسية-فإنّ أصحاب الكلمة يلجؤون إلى وسائلهم وأدواتهم الفنّية الخاصّة التي يستطيعون بواسطتها أن يعبّروا عن آرائهم وأفكارهم بطرقة فنّية غير مباشرة"[5]تتطلّب الذّكاء والمهارة.

2.2 السّخرية:

تُعدّ السخرية من ضمن الفنون التعبيرية الأكثر شيوعا في الساحة الأدبية المعاصرة، حيث أقبل عليها الروائيون المعاصرون بشكل لافت واتخذوها سلاحا لهم في الدفاع عن أغراضهم والكشف عن واقعهم وتعريته من الزيف بصورة تهكمية، بُغية إصلاحه وقمع الفساد والظلم فيه باستخدام أدوات محددة كالفكاهة والتهكم والضحك...

إنّ السخرية مصطلح يصعب حصره في مفهوم واحد، فهو متفرع بحسب الظروف والمتغييرات التي شهدها، وهي في أبسط تعريفها"طريقة من طرق التعبير، يستعمل فيها الشخص ألفاظا تقلب المعنى إلى ما يقصده المتكلم حقيقة، وهي صورة من صور الفكاهة تعرض السلوك المعوج أو الأخطاء، التي إن فطن إليها وعرفها فنان موهوب تمام المعرفة وأحسن عرضها، تكون حينئذ في يده سلاحا مميتا"[6] وذرعا يحمي به الساخر نفسه، وقناعا يواجه به الفساد بأسلوب راق يترفع عن الشتيمة ويتنزه عن القذف، من هنا يتوجب على القارئ الحذق إزالة ذلك القناع والوصول إلى المعاني العميقة.

كما يعرف أسلوب السّخرية بأنه"كوميديا سوداء تعكس أوجاع المواطن السياسية والاجتماعية ويقدّمها بقالب ساخر يرسم البسمة على الوجه، ويضع خنجرا في القلب"[7]وهذا مفاده أن السخرية ترتبط بالفكاهة ولا تخرج عن طابع الهزل والضحك مهما كان موضوعها.

وبناء على هذا، يمكن تحديد مفهوم السّخرية الأدبية على أنها "أداة إجرائية يعبّر بها الكاتب عن نظرته إلى العالم...وتحتمل أبعادا شتى كفضح الأمور التي تختفي وراء غياب المجهول...وانتقاد الأشخاص والعالم وإدانة الواقع المعيش...ورغم هذه الأبعاد التي ترمي إليها السخرية، فهي تعتبر شكلا مميزا للكتابة"[8]، حيث نُظر إليها عل أنها فنّ أدبي يكشف عن القدرة الإبداعية للروائي ومهارته في إبراز مواقفه ونقد الأوضاع السياسية والاجتماعية الفاسدة بروح ساخرة مضحكة، وغرضه من وراء ذلك الإصلاح والتّرشيد وبثّ الوعي في النّفوس.

ومن مُجمل التعاريف نخلص إلى أنّ المفارقة السّاخرة ظاهرة أدبيّة وأداة بلاغية أكثر فاعلية في نقد الظلم والقهر والقمع في شتى صوره، يستخدمها المبدعون في خطاباتهم السّياسية من أجل التخلّص من قيود الرّقابة للتوصّل إلى عمل إبداعيّ بنزعة كوميدية، هدفها الكشف عن عيوب ومساوئ المجتمع قصد علاجها.

3. أثر المفارقة السّاخرة في بناء أحداث الرواية:

إن مفارقة الأحداث هي مفارقات ناتجة عن تعارض بناءات الأحداث مع بعضها البعض، وهذا ما نلمسه في هذا النموذج السردي، الذي يجمع صورا متناثرة ومتناقضة لشخصية مأزومة على لسان السارد العالم بكل التفاصيل، موظفا الصور والأساليب الساخرة التي تنفتح على دلالات

مكثفة مخفية بين السطور والكلمات، لذلك سنحاول إجلاء الأحداث الساخرة المبنية على التلاعب بالألفاظ والمراوغة والرمزية.

1.3إحياء ذاكرة المنفى ومساءلة الموتى:

لقد ارتكزت رواية"شبح الكاليدوني" على مخزون الذاكرة، قصد إحياء التراث المهمّش وتعرية المسكوت عنه والمقموع من تاريخ الغرب الجزائري، فقد أصبحت تجربة المنفى بالنّسبة للروائي "محمد مفلاح" مادة خصبة وتيمة سردية رئيسية هيمنت على مخيّلته، وحفرت عميقا في وجدانه، فهو وإن كان ينطلق من الحاضر إلا أنه يعود باستمرار إلى النبش في تربة الماضي والكشف عن المخبوء المتوارى بين طيّاته، وهذا ما عبر عنه في قوله:"في روايتي الجديدة سلطت الضوء على مأساة الجزائريين المنفيين إلى المستعمرات الفرنسية، خاصة إلى جزيرة "كاليدونيا الجديدة" منذ سنة 1864، وكانت هذه الجزيرة الرهيبة سجنا للثوار الذين قاوموا قوات الاحتلال. وركزت في عملي على متاعب أحد المنفيين بعد إخماد ثورة الشيخ الأزرق بلحاج المندلعة بمنطقة غليزان وضواحيها (الغرب الجزائري)، وانطلقت فيه من موضوع الاغتراب الذي يعيشه حفيد أحد المنفيين في هذا الزمن ثم سافرت بالقارئ إلى عالم الجراح العميقة ومنها جرح المنفيين الغائر في الذاكرة. للأسف لم نلتفت إليه ولم نخلد أسماء ضحاياه الذين خلفوا بعض أحفادهم في تلك الجزيرة، ويحملون اليوم أسماء جزائرية، ومنهم من يتولى مسؤوليات في تلك الجزيرة. وفي "شبح الكاليدوني" تفاصيل كثيرة مكتوبة بلغة موحية بآراء وإشارات إلى مسؤوليتنا الجماعية في نسيان هذا الجرح الذي خلفه العهد الكولونيالي، وصراحة لم نستطع حتى الآن تضميده على الأقل بإحياء ذكراهم الأليمة والكتابة عن مآسينا"[9].

يتراءى لنا من خلال هذا المقطع السردي أن الروائي غاص في تاريخ المنفيّين إلى جزيرة كاليدونيا، المتواجدة في المحيط الهادي بالقرب من أستراليا أثناء الاستعمار الفرنسي للجزائر، محاولا النّبش في جزء من تاريخ الجزائر المهمّش والمغيّب من قبل المؤرخين وخاصة السلطات المحلية.

إنّ توظيف التاريخ عند الرّوائي "محمد مفلاح" لم يأت عشوائيا، بل كان ملمحا من ملامح التجريب عنده، ومظهرا من مظاهر الكتابة الحداثية التي أراد الكاتب خوض غمارها، فلطالما استلهمت رواياته معطيات التّراث التاريخي وإعادة بعثه وإحيائه في نفوس الجيل الجديد من الجزائرين، حيث حفلت رواية "شبح الكاليدوني" بزخم هائل من الأحداث التاريخية التي تنامت وتشابكت كلّها لتشكّل لنا العالم الكلّي للرواية بطريقة فنية جمالية يلفّها الخفاء والغموض.

بناء على ما سبق نقف عند أبرز المشاهد السردية التي ألفيناها متقاطعة مع الموضوع المركزي، و بيان ذلك الشواهد الآتية:

-"شعر بثقل لقبه وغرابته، لقب مثير لاهتمام كل من يسمعه لأول مرة. واجه ابتسامات زملائه بصبر كبير، وتساءل بعضهم عن سر لقب (المنفي) فكان رده سريعا:"لا أعلم" طلب وقتذاك من والده الحاج عبد القوي أن يغير هذا اللقب الغريب فربت هذا الأخير على كتفه الهزيلة قائلا له بهدوء الرجل المجرب:"انتظر قليلا وستتعرف على أسرار هذا اللقب المجيد"[10].وبقي يتساءل: أين قبر هذا الشيخ المنفي الذي أورث عائلته هذا اللقب العجيب؟.

-"لماذا غيب المؤرخون مأساة هؤلاء الثوار المنفيين إلى كورسيكا وكاليدونيا الجديدة؟ لا نعرف حتى أسماءهم.أمر عجيب. ولماذا سكت الناس عن هؤلاء المنفيين الذين لم تذكرهم الكتب المدرسية"[11]

-"طرح امحمد شعبان انشغاله بقضية المنفيين فقال له المحاضر بأنه لا يهتم إلا بتاريخ الأمم الراقية، فقضيته دولية واهتماماته حضارية كما ظل يردد بحماسة"[12]

-"أين أنتم يا متعلمون لإنقاذ معالم بلادكم؟

ابتلعتكم المدينة ونسيتم تاريخكم....ظل يحدثه عن لامبالاة الناس والحكومة بتاريخ الأجداد"[13].

من هنا يمكن استخلاص ما سكت عنه الخطاب من خلال الثنئيات المركزية (لقب غريب/لقب مجيد) (الاهتمام/اللامبالاة) (الاهتمام بالتاريخ المحلي/الاهتمام بتاريخ الأمم)(طرح قضية المنفيين/طرح قضية دولية)؛ حيث إن هذه الثنائيات المتضادة دلاليا تقودنا إلى مسألة مهمة مفادها أن السلطات المحلية أبدت اهتمامها بتاريخ وحضارات الأمم، وفي المقابل أهملت وهمشت وغيّبت تاريخ أجدانا المجيد، فلم يكن له نصيب من التأريخ في كتب التاريخ ولا حظ في برامجنا الدراسية، وكأنهم يعملون دون وعي منهم على طمس مآسي الوطن، وصرف النظر عن الاعتراف بالتضحيات الجسيمة التي قدمها هؤلاء المنفيين في سبيل تحرير وطنهم، ما عدا بعض الجهود التي يقوم بها بعض الناشطين أمثال الحفيد "امحمد شعبان" عبر مواقع التواصل الاجتماعي، ومحاولة التواصل مع أهاليهم في كاليدونيا الجديدة وجمع المعلومات الكافية للوصول إلى ضريح جده.

كما ألقى امحمد شعبان لومه على المؤرخين الذين غضوا النظر عن جرائم فرنسا و تستروا عليها في كتبهم، بل فاق عتابه حتى وصل إلى الأدباء العالميين أمثال: فيكتور هيجو وألبير كامو الذي اهتم بأسطورة سيزيف و أهمل مأساة الجزائريين، فظلوا مجهولين في كتب التاريخ و الأدب.

وكلما غصنا أكثر في عمق البنية السّردية وجدنا الأحداث والشخصيات تتحرك في فضاءات المفارقة تارة، ومطبوعة بقالب السخرية تارة أخرى، فمنذ بداية السرد تظهر رغبة الشخصية البطلة في البحث والاهتمام البالغ بتاريخ أجدادها الذي لم يحظ بالتأريخ، وشديدة الانفعال وساخطة على من يسيء لذلك ويعتبره ضربا من الخيال، فهذا صديقه "لزرق البراق" يتصل به ويقول:"سمعت أنك أصبحت مهتما بتاريخ المنفيين.أنصحك..دعك من خرافات الماضي وحكايات الشيوخ. لقبك كان مجرّد صدفة في زمن الجهل"[14].

يمكن استبيان المظهر التهكمي في هذا المشهد السردي عبر تلك النّعوت الساخرة التي وردت على لسان إحدى الشخصيات في الرواية (لزرق البراق)؛ حيث أساء للقب (المنفي) وألصق به صفتي (الخرافة/الجهل)، ليتبين لنا من خلال وصفه هذا نيته السيئة التي تسعى إلى عرقلة البحث عن سر لقب المنفي، وهذا ما زرع في نفس البطل عزيمة وإصرارا في خوض غمار الرحلة للإجابة عن الأسئلة التي راودته منذ صغره، شبح سكن الهوية وتقمص الشخصية، مما جعل التخلص منه رحلة شاقة دروبها محفوفة بالمجاهيل.

يطلعنا الروائي في خاتمة عمله أن امحمد شعبان قتل تساؤلات ذاكرته حول شبح الماضي والمستقبل المجهول، وحقق حلما طالما تمنى تحقيقه، بل ازداد سعادة عظيمة بالوقوف على قبر

جده الذي اشتاق للوقوف على جثوته، فكشف أسرار جده المنفي، و أدخل فرحة عظيمة على قلب والده.

وممّا تقدّم يمكننا القول أنّ محمد مفلاح احترف لعبة رصد الأحداث بتفاصيلها وتحولاتها المثيرة، محاولا إضاءة الحقائق التاريخية المسكوت عنها، هذا التاريخ المهمش محفور في الذاكرة الشعبية المليئة بمآسي الماضي المرير التي عاشها الشعب الجزائري منذ أمد بعيد، متخذا منها خطوطا عريضة لنسج روايته بطريقة رمزية مشفرة، تلح على القارئ فهم مستواها داخل هذا الخطاب الذي يحمل في جوفه رحلة بحث عن القبر الضائع للجد الثائر وفك لغز لقبه الغريب (المنفي)، هذه الرحلة التي تولدت من شبح لم يكن له ظل ولا صوت ولا أثر.

2.3 الأسلوب السّاخر وأثره في إدانة الواقع وفضح المسكوت عنه:

يمكن القول إنّ أخطر سلاح استعمله الأدب هو فنّ السّخرية والفكاهة السّاخرة، لأن هذا الأسلوب كان اللّسان النّاطق بمعاناة المواطن العربي وآلامه، ناهيك عن توظيف خطاب المفارقة القائم في جوهره على التّناقض والتضاد من أجل مواجهة القوى الظّالمة والمستبدّة، والثّورة على الأنظمة الفاسدة، لذا اتّخذت السّخرية طابعا سياسيا واجتماعيا، وفنّيا وجمالية، من خلال الجمع بين أمرين متناقضين: إثارة الضّحك والفكاهة من جهة، والتعبير عن الحسرة والألم والاستنكار من جهة أخرى.

وقد جاءت رواية "شبح الكاليدوني" ساخرة من الواقع السياسي والاجتماعي الذي يتأسّس على مفارقات، فكانت غاية المبدع من استخدام نسق الكتابة الساخرة محاولة صياغة الواقع في صورة جديدة، وإبراز آلامه واستنطاق بؤر الفساد فيه، من خلال التهكم والسخرية على الأوضاع السّائدة بكلمات بسيطة مُعبرة مشحونة بالمفارقة والتناقض مع واقع الحياة، يناشد فيها الروائي برفض الظلم والاستبداد والقهر لبناء مستقبل أفضل، وأبرزها:

أ-أزمة السكن: من المشاكل التي تؤرق المجتمع الجزائري، حيث يصور لنا الروائي نموذجا من هؤلاء يتمثل في الشخصية البطلة التي تعيش تعارضا بين الإقامة والترحيل"سكنه في شقة ذات ثلاث حجرات، جمعته مع والديه، وأربع أخوات، وجدته من أبيه لالة نبية الفليتية، ولازال هو إلى حد الآن في هذه الشقة الصغير المعلقة في الجهة اليمنى من العمارة الخامسة لبنايات حي ديار الورد"[15].

وفي مقاطع سردية أخرى ينعتها الكاتب بـ(الخامسة المتشائمة) (العمارة البائسة) (اليتيمة) "لم تبق في محيط ربوة المدينة إلا عمارة واحدة رمادية اللون، لا زال سكانها ينتظرون يوم ترحيلهم منها إلى حي برمادية...البناية اليتيمة ذات الطوابق الأربعة"[16]،سكنها امحمد شعبان وأهله قبل أن تخفق راية الحرية والاستقلال، وهو لا يختلف في شيء عن باقي البسطاء من الشعب الذين يسكنهم هاجس السكن الاجتماعي منذ الاستقلال، وقد التقى ببعضهم أمام ساحة البلدية "نساء ورجالا وأطفالا يصيحون، وبعضهم يحمل لافتات كتب فيها مطالب وشعارات بخط عربي ركيك، منها مطلب السّكن الاجتماعي"[17] .

هذه المشاهد لا يشي فيها الروائي بالدلالة العميقة لمقصده، الأمر الذي يجعلنا نفضح المستور؛ وهو أن الحالة المتردّية لسكان العمارة الخامسة التي تآكلت جدرانها وصارت مهددة بالانهيار، تعكس المعاناة التي عاشها الشعب الجزائري أثناء العهدة الرئاسية الرابعة من الحكم،

ودفعت به إلى الثورة ضد هذا النظام الفاسد الذي طال كل القطاعات، ورفض تجديد العهدة الخامسة رغبة في التغيير نحو الأفضل.

ب-الواسطة والمحسوبية: تواصل الأحداث الاجتماعية والسياسية نسج خيوطها السردية وتشحينها بمفارقات مكثّفة، يحرص الكاتب على توظيفها ليكشف عن التناقضات القابعة في الواقع؛ حيث يرصد لنا ظاهرة الواسطة وتقديم الرشاوي لأصحاب العقول المريضة والقلوب المتلهّفة، فحين "توجه إلى مركز البريد لاستلام راتبه الشهري. عقيلة الكاف حذرته من الانتظار أمام شباك الصكوك البريدية. السّيولة تقل في الأيام الأخيرة من كل شهر. أرادت أن ترشده إلى صديقتها شامة لإنقاذه من جحيم الطوابير ولكنه رفض"[18]، لكن المفارق في الأمر أنه ابتعد عن مقر البريد وهو يفكر في الوساطة التي عرضتها عليه عقيلة الكاف.

اكتفى الروائي بذكر الدوال (قلة السيولة/الوساطة) ليستدعي قارئا موهوبا يجيد قراءة الضمني الكامن بين مزالق الدلالات العميقة، وفضح ما سكت عنه النص، ولمّح إليه أحيانا بالترميز الذي يوحي إلى انهيار قيم المجتمع بسبب تفشي ظاهرة (الواسطة)، التي أصبحت جزءا لا يتجزأ من المعاملات اليومية، قننها المواطن العربي ومنحها صلاحيات الأخلاقيات العادية، فتحولت بموجب ذلك لأسلوب حياة ممزوج بأشكال الفساد والتهميش والظلم الاجتماعي والإخلال بالنظم والقوانين الحكومية.

الواسطة إذن، ما هي سوى الوجه السيئ للنوايا الحسنة، تفسح المجال أمام أصحاب النفوذ لخلق فرص العمل والترقيات وكذا قفز طابور الانتظار وتحقيق المبتغى من غير بذل أي جد، أما الإنسان العادل فيراها سلوكا خاطئا لا يمت للحق والفضيلة والخلق الكريم بصلة.

ج-الميراث: لم يغفل الروائي في عمله عن طرح قضية في غاية الأهمية، وهي حرمان المرأة من حقها في الميراث بسبب هيمنة الذكر ودونية المرأة، وهذا ما أشار إليه في قوله:"لم يزر فاروق البايلك -يوما- بيت أخته بالعمارة المتواضعة... بعد وفاة الخوجة شعبان. حرمها من الميراث".[19]

يفضح هذا المقطع السردي تلك الأنظمة و الأعراف الفاسدة والعادات والتقاليد البالية التي كانت سببا في ظلم المرأة وهضم حقوقها في الميراث، كما يضيف لنا مشهدا آخر مثقلا بالسخرية والتهكم: "ابتسم امحمد شعبان وقال بلهجة هادئة:

-الحمد لله.. حالها أحسن من ولد الخوجة والبايلك.

انتفض فاروق البايلك من مكانه. لم يعجبه رد ابن أخته فتمتم بأسى:

-أتتهكم علينا؟"[20]

تبلغ المفارقة الساخرة في هذا المشهد الحواري ذروتها بين الخال وابن أخته، ليمرر الكاتب رسالته بطريقة ضمنية نحاول فك شفرتها بقولنا: إن ميراث المرأة حق قررته عدالة السماء ولكن هضتمه أطماع الإنسان،فتولد جرّاء ذلك الخصام و تقاطع الأسر وزرع بذور الفتنة بينهم.

د-الهجرة: يعايش السّارد مختلف مشاكل واقعه المتخلّف، ثمّ ينتقد مجمل الظّواهر الفاسدة التي عشّشت في مجتمعه المتعفّن، لذا يوظّف الكاتب مختلف المفارقات اللّغوية الصّاخبة المطبوعة بالسّخرية اللّاذعة الصّارخة من أجل التّعبير عن قضية الهجرة التي أصبحت تهدّد الكائن الإنساني

وتدفعه للهروب من واقعه؛ حيث صورت لنا الرواية حياة شخصية مهمّشة في زمن الاستقلال، تتأرجح بين أمجاد الماضي المنسي وقلق الحاضر، هذا الحاضر الذي يوازي الماضي في التهميش والتغييب ولكن بأسلوب مغاير، يعيش بصمت في هذه الحياة البائسة التي لا تختلف عن كثير من عامة الناس، لا شيء جدير بالذكر في حياته الرتيبة سوى لقبه (المنفي) الذي غيّر مجرى حياته، فكان نقطة انطلاق ساهمت في تحريك الخط السردي وتنامي الأحداث؛ حيث إن "امحمد شعبان" لم يكن اهتمامه بكاليدونيا بلد المنفى سوى تتبع آثار جده المنفي، لكن سرعان ما يقف القارئ على دلالات مغايرة متناقضة كسرت خطية الأحداث، إذ يتحول منفى الأجداد الذي لاحقه منذ صغره كوصمة عار إلى طموح وأمنية للهجرة والخلاص من حياة اللاجدوى والفراغ الذي يتربص به،"قرر بسرعة أن يقدم على المغامرة التي كان متخرفا منها. رأى أن الوقت قد حان للمغادرة سريعا. في ظرف أسبوع باع سيارته وقطعة الأرض"[21].

هذا التّهميش الذي تغافلته الدولة الرسمية بقصد أو بغير قصد، ولّد في نفوس هؤلاء المنسيين الشعور بالغربة في حضن وطنهم، وبعث فيهم الرغبة الشديدة في الهجرة إلى كاليدونيا موطن الأحلام والخلاص.

4. خاتمة:

سعينا في محاورتنا النقدية لهذا الموضوع البحثي إلى النّبش في خطاب المسكوت عنه، وتأويل مقاصد النص والكشف عن دلالات السخرية وأبعادها في رواية "شبح الكاليدوني" لمحمد مفلاح، كونه يعبر بأسلوب ساخر عن تجربته في العالم الذي أفقده الثقة في نفسه، ورسّخ فيه نبذ كل أشكال الفساد مما يحدث حوله من مواقف، آملا في تغيير ذلك العالم المزيّف.

ومنه نخلص إلى جملة من النتائج والتي بيانها الآتي:

-أثبتت الرواية الجزائرية المعاصرة وجودها في السّاحة النّقدية العربية والعالمية، وذلك بتجدّد رؤى كُتابها ومواكبتهم لحركات التّجديد وتجاوز المسلّمات الثابتة والتقاليد المتوارثة، من خلال إعادة النظر في الاستراتيجيات والأدوات والأساليب البلاغية التي تمنح العمل الأدبي فرادته، من بينها المفارقة والسّخرية.

-المفارقة تقنية حديثة تشكل ملمحا من ملامح الرؤية الإبداعية لما لها من وظيفة فنية قادرة على منح الكاتب صفة التميّز، كما أنها وسيلة أسلوبية تعزز التلقي وتنميه، وتدفع بالقارئ إلى اقتناص مكامن الأثر الأدبي الذي تنبعث منه شرارة التضاد.

-السّخرية شكل من أشكال الممارسة اللغوية الخطابية، ووسيلة الكاتب في التعبير عن المفارقات والعيوب والمساوئ والاضطرابات التي تعكس حجم الرذيلة والفساد، وكل أشكال القهر والظّلم وفضحها بأسلوب ساخر يجمع بين أمرين متناقضين: إثارة الضّحك والفكاهة من جهة، والتّعبير عن الحسرة والألم والاستنكار من جهة أخرى.

-تحضر المفارقة السّاخرة في النّص الرّوائي المعاصر بصفتها ظاهرة فنّية ووسيلة بلاغيّة بامتياز، يستخدمها المبدعون في أعمالهم الفنّية من أجل التخلّص من قيود الرّقابة والتوصّل إلى عمل إبداعيّ يكشف عن زيف كثير من مسلّمات هذا الواقع، ويوقظ الوعي في المتلقي ويُغريه بتتبع الدّلالات العميقة وفك شفراتها الرامزة، ولهذه التقنية أهداف تتنوّع حسب عمق رؤية المبدع، فكلما كان واعيا بتعقيدات الحياة وإشكاليات العصر كانت مفارقاته أكثر عمقا.

-رواية "شبح الكاليدوني" من الأعمال الفنّية التي اتخذت مادّتها من معطيات الواقع، ووضعت القارئ أمام وقع الصّراعات والتّحولات التي شهدها المجتمع الجزائري على الصعيدين الاجتماعي والسياسي، حيث عمد الروائي فيها على التقاط صور أكثر إيحاء وقربا من الواقع، من خلال حديثه عن المفارقات والتغيرات التي طرأت على الواقع الجزائري وطرحها بأسلوب ساخر.

-تمكّن الروائي من خلال عمله أن يرصد لحظات التّقاطع والتّنافر، الاتّصال والانفصال بينه وبين العالم المحيط به، ليصوّر لنا واقعا يعيشه الإنسان المهمّش في وطنه، ويجعلنا نرى التّناقض والتّنافر في أشياء ما كان ينبغي أن تكون متناقضة، حيث عمل على تطويع نصّه وعرض أفكاره من خلال الشخصية المحورية "امحمد شعبان"، التي عبّر بها عن تلك الحقائق الغائبة المتستّر عليها في المجتمع تحت أقنعة وشعارات مزيّفة، غلب عليها طابع نقدي ساخر جمع فيه بين التّصريح و التّلميح والصّمت.

-حقّقت المفارقة السّاخرة أبعادا دلالية وجمالية على مستوى الشّكل والمضمون معا، استعان بها الروائي كاستراتيجية نصّية ليمارس لعبة الإظهار والإضمار، وذلك من خلال توليد دلالات ومفارقات أفرزتها أزمات الفرد الجزائري خاصة بعد الاستقلال، أين وجد نفسه بين مخلّفات الدّمار الذي تركه الاستعمار من جهة وبين ضغوطات المجتمع وتناقضاته.

5. قائمة المراجع:

1. خالد سليمان: المفارقة والأدب، دراسات في النظرية والتطبيق، د.ط، دار الشروق للنشر والتوزيع (عمان) ، (1991).
2. دي سي ميويك: موسوعة المصطلح النقدي، المفارقة وصفاتها، تر: عبد الواحد لؤلؤة، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر (بيروت) ، (1991).
3. ذهبية حمو الحاج: قضايا التداولية والخطاب، ط1، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع(الأردن)، 2016.
4. سيزا قاسم: المفارقة في القص العربي المعاصر، مجلة فصول، مارس (1982).
5. شمسى واقف زاده: الأدب الساخر، أنواعه وتطوره مدى العصور الماضية، مجلة دراسات الأدب المعاصر (إيران)، ع12.
6. محمد مفلاح: شبح الكاليدوني، ط1، دار المنتهى للطباعة والنشر والتوزيع (الجزائر) ، (2015).
7. مفلاح: الرواية التاريخية تدون ما أهمله المؤرخون. أنظر الموقع www.aljazeera.net
8. نبيلة إبراهيم: المفارقة، أفريل ، مجلّة فصول، المجلد السابع، العدد3، (1987).
9. نعمان محمد أمين طه: السخرية في الأدب العربي، ط1، دار التوفيقية للطباعة (جامعة الازهر)، (1978).
10. هيثم محمّد جديتاوي: المفارقة في شعر أبي العلاء المعري، "دراسة تحليلية في البنية والمغزى". عمان، الأردن: دار اليازوري، (2012).

6. هوامش البحث:

[1]خالد سليمان: المفارقة والأدب، دراسات في النظرية والتطبيق، د.ط، دار الشروق للنشر والتوزيع (عمان)، (1991)،ص258.

[2]دي سي ميويك: موسوعة المصطلح النقدي، المفارقة وصفاتها، تر: عبد الواحد لؤلؤة، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر (بيروت)، (1991)،ص161.

[3]نبيلة إبراهيم: المفارقة، أفريل، مجلّة فصول، المجلد السابع، العدد3،(1987)، ص132.

[4]سيزا قاسم: المفارقة في القص العربي المعاصر، مجلة فصول، مارس (1982)، ص143-144.

[5] هيثم محمّد جديتاوي: المفارقة في شعر أبي العلاء المعري، "دراسة تحليلية في البنية والمغزى". عمان، الأردن: دار اليازوري، (2012)،ص51.

[6]نعمان محمد أمين طه: السخرية في الأدب العربي، ط1، دار التوفيقية للطباعة (جامعة الازهر)، (1978)، ص13.
[7]شمسى واقف زاده: الأدب الساخر، أنواعه وتطوره مدى العصور الماضية، مجلة دراسات الأدب المعاصر (إيران)، ع12، ص102.
[8]ذهبية حمو الحاج: قضايا التداولية والخطاب، ط1، دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع(الأردن)، 2016، ص366.
[9]مفلاح: الرواية التاريخية تدون ما أهمله المؤرخون. أنظر الموقع www.aljazeera.net
[10]محمد مفلاح: شبح الكاليدوني، ط1، دار المنتهى للطباعة والنشر والتوزيع (الجزائر)، (2015)، ص6.
[11]المصدر نفسه، ص46.
[12]المصدر نفسه، ص ن.
[13]المصدر نفسه، ص100.
[14]المصدر نفسه، ص75.
[15]المصدر نفسه، ص7.
[16]المصدر نفسه، ص9.
[17]المصدر نفسه، ص53.
[18]المصدر نفسه، ص62.
[19]المصدر نفسه، ص63.
[20]المصدر نفسه، ص ن.
[21]المصدر نفسه، ص119.